الاتجاه الوجداني في شعر النابغة الذبياني

إعداد: د. محمد على جودر ــ كلية التربية العجيلات ــ جامعة الزاوية

المقدمة :

يُعد النابغة الذبياني من أشهر الشعراء المقدمين في الجاهلية ، حيث تميز شعره عنهم بأنه أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً فكان شعره كلاما ليس فيه تكلف .

ويذكر ابن سلام الجمحي أن النابغة من الشعراء المبرزين ويقرن اسمه إلى امرئ القيس بن حجر، و زهير بن أبى سلمى، والأعشى ، فهولاء في رأي ابن سلام مقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية .

أما في الإسلام فقد روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أنه قال :من أشعر الناس ؟ قال : جلساؤه ، أنت أعلم يا أمير المؤمنين ، قال من الذي يقول ؟

إلا سليمان الذي قال الإله له قم في البرية فأحددها عن الفند([1])

قالوا : النابغة .قال : من الذي يقول ؟

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بى الظنون ([2])

قالوا: النابغة قال : من الذي يقول ؟

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب ([3])

قالوا : النابغة . قال : (هو أشعر العرب)

وتتأكد مكانة النابغة إذا علمنا أنه " كانت تضرب له قبة من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فيحكم بينهم "([4])، ويروى أنه أتاه الأعشى فأنشده شعره ، ثم حسان بن ثابت ، ثم الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وقد عرف بمقدرته

الفنية فهو لا يقبل كل ما يرد على خاطر، بل لا يزال يثقفه، ويصقل فيه حتى يستوي له اللفظ المؤنق أو الديباجة الجزلة ([5]).

وعلى الرغم من الاعتراف بالمقدرة الفنية للنابغة الذبياني ، إلا أن البعض وقف عند اعتذاريات النابغة ومدائحه للنعمان بن المنذر، والحارث والنعمان الغسانيين ، فقد وقف القدماء طويلا عند إجادته لفني المديح والاعتذار،غير أنهم عادوا فقالوا: إنه أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان في غنى عن هذا القبول وكذا الحال في النقد الحديث نجد موقف المتكسبين بالشعر منه إذ نقول : وفي هؤلاء تصدق المقولة القديمة (الشعر تجارة العرب) وكانت تجارة رابحة جعلت مثل النابغة يأكل ويشرب في صحاف من الذهب والفضة أو آنيهما...فالشاعر ... تابع للأمير وفرد من حاشيته وله وظيفته المحددة التي تلزمه بتمجيد أفعال سيده والتغني بسجاياه وتقديس كل تصرفاته والارتفاع به إلى سماء لا تطالها سماء

إذ يقول :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبد منهن كواكب([6])

وليس هذا في حق النابغة حقاً فليس (شعره جميعه مدحا واعتذارا ... ففي شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته ... وفي شعره فخر وهجاء وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده نصيباً من الحكمة والتجربة الصادقة ولو بحثنا عن سبب هذه الصلة بالملوك والأمراء لوجدنا أن مصلحة القبيلة هي وراء كل هذا .

وعلى الرغم من هذا فإننا يجب أن نحكم على النابغة مستعينين بما نراه من قدراته الفنية ، أي لا يجوز أن نلغي هذه المقدرة لمجرد قصائد قالها معتذراً ، فلو نظرنا في اعتذارياته لوجدناه (شاعرا ، بارعا) يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع معانيه .

ويمكن القول : إن قيمة شعر النابغة تقوم إلى حد كبير على مقدرته الفنية كما تقوم على نضجه الفكري وترابط معانيه ، ذلك الترابط الذي افتقر إليه معظم الشعراء الجاهليين .

المديح والاعتذار

نشأ المديح من إشادة الشعراء بأبطالهم والتغني بأفعال ساداتهم ؛ إلا أن المديح في عهد الغساسنة والمناذرة قد تحول إلى حرفة ووسيلة فردية للتكسب ، وقد عرف عدد من الشعراء بهذا منهم النابغة الذبياني [7] ، ولقد أشاد القدماء بمقدرة النابغة في المدح والاعتذار [8] وقد احتل المديح حيزا واسعا من ديوان النابغة حتى يكاد أن يناصف

بقية الأغراض [9] وقد نالت مدائح النابغة الغساسنة والنعمان بن المنذر ، ومن مدائحه المشهورات قصيدته في مدح عمر بن الحارث الغساني .

ومنها قوله :

علىّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمــةٍ لوالدهِ ليست بذاتِ عقـاربِ ([10])

ومنها قوله المشهور :

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهـم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصــائبِ

يصاحبنهم حتى يغرن مغارتهـم من الضاريات بالدماء الـدوارب

تراهن خلف القوم خزرا عيونها جلوس الشيوخ في ثياب المرانب

جوانح قد أيقن أن قبيلـــــــــة إذا ما التقى الجمعان أَول غالـب([11])

لقد عرف الشعراء المتكسبون أمثال النابغة بتجويدهم لأشعارهم سعيا لنيل استحسان الملك أو الأمير، مما يتوجب حسن الثواب لهم ، لذا نجد النابغة يسعى ويكد نفسه متفننا في شعره ، فلو أطلنا النظر في هذه القصيدة وجدناه بعد الثناء على الأنساب ، وصف جيوش الغساسنة ، ينتقل لوصف قتالهم ، ويقيم لوحة لوصف سيوفهم ثم يختم القصيدة بلوحة يصف بها أعيادهم ، وما ينعمون به من جاه وعز فيتناول الممدوح من جوانب عدة مدققا في كل جانب ، منشئاً لوحات فنية رائعة فلننظر وصفه للسيوف إذ قال :

فهم يتساقون المنية بينهــم بأيديهمُ بيضُ رقاق المضــارب

يطيُر فضاضا بَينهَا كل قونـس ويتبعها منُهم فراشُ الحواجـب

ولا عيبَ فيهم غيْر أن سيوفهم بهنّ فلول مــن قراع الكتائــبِ

تورثن منْ أزمان يوم حليمةٍ إلى اليوم قد جربن كلّ التجـاربِ

تقدّ السلوقيَّ المُضاعفَ نسجهُ وتوقد بالصُّفاح نار الحُباحـبِ

بضرب يُزيل الهام عن سكناتهِ وطعنٍ كإيراغ المخاض الضـوارب [12]

إن النابغة الذبياني يقيم لوحة حركية متعددة مشاهداً مدققا في كل مشهد منها، يعطي هذه السيوف وأصحابها الصورة الأمثل للقوة والنصر ، المؤكد على كل عدو ، ويشفع هذه الصور بذكر تاريخ السيوف وأصحابها الذي نراه يبدو واحداً ، فقد خلق النابغة صورة موحدة تمزج بين السيف والمقاتل ، للوصول إلى الغرض وهو المدح ، فجاء بصورة فنية وأسلوب تصويري رائع .

إن تكسبه بالشعر وأخذ عطايا المناذرة ، وكذلك الغساسنة ، إنما كان القصد منه رعاية مصالح قبيلته ، إذ كان يلتقي بأمراء لهم سلطان كبير على القبائل العربية، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته [13] وقد بلغ بالنابغة الأمر أن مدح الأمراء وهم غلمان بعد لم يشبوا تقربا إلى ذويهم ([14]) ، ومن هذا قوله في مدح النعمان الغساني وهو لا يزال غلاما :

هذا غلام حسن وجهـــه مستقل الخير سريع التـمام

للحارث الأكبر وللحارث الأصغر والأعرج خير الأنام [15]

إن غرض الاعتذار لا يكاد أن يستقل بنفسه ، بل نجده يمتزج بالمديح ،إذ يعمد الشاعر إلى الإشادة بالمعتذر له ، مما يجعل القصيدة مزيجاً من المديح والاعتذار، لذا نجد الكاتب يدرس الغرضين معا على أنهما غرض واحد وهذا حق ، ولقد عرف النابغة الذبياني باعتذارياته التي ارتبطت بالنعمان بن المنذر ، وكانت للنابغة الريادة الفنية في هذا الفن إذ أنه (لكثرة اعتذاره وتنوع أفكاره وتشقق معانيه جعل في أبناء العربي فنا قائما بذاته هو الاعتذاريات) [16] .

وكان النابغة متفوقاً في الاعتذار تفوقه في المديح ، فقد نظم اعتذاريات أقامها بأسلوب فني عال[17] ، ومن أشهر اعتذارياته قصيدته التي يقول فيها :

فلا لعمر الذي مسحت كعبتــه وما هريق* على الأنصاب من جسد

والمؤمن العائذات **الطير تمسحها ركبان مكة بين الغيل والسعـــد***

مـــا قلت من سيئ مما أتيت بــه إذاً فلا رفعت سوطي إليّ يـــدي

إلا مقالة أقــوام شقيت بهـــــا كـــانت مقالتهم قرعاً على الكبـــد

إذا فعـــاقبني ربي معاقبـــة قرت بها عين من يأتيك بالفنـــد***

أنبئت أن أبا قابـــوس أوعدنـي ولا قرار على زأر مـــن الأســـــد

مهــلا فداء لك الأقوام كلهـــم ومـــا أثمـر من مـــال ومـن ولـــد

لا تقذفني بركن لا كفـــاء لـــه وأن تأثفك* الأعداء بالرفـــــد (18)

وكان اعتناء النابغة بهذه القصيدة أن جاء فيها بأحد التشبيهات الطويلة التي تمزج بين الوصف والغرض الرئيس في القصيدة بأن يجعل التشبيه مطية للمدح إذ قال :

فما الفرات إذا جاشـت ***غواربه** ترمي أواذيه***** العبرين بالزيـد**

يمـــــده كل واد متـرع لجـب فيه ركام من الينبوت والخضد

يظل من خوفه الملاح معتصمـا بالخيزرانة بعد الأين والنجـــد

يوما بأجود منه سيـب نافلـــة ولا يحول عطاء اليوم دون غـد (19)

هذه الأبيات وصف حسي رائع لما تشاهده العين عندما يفيض الفرات وقد استطاع الشاعر(أن يرسم صورة واضحة بالغة الصفاء حتى أوفى على ذروة التصوير النقلي) وقد بدت في هذا الوصف صورة لا تفارقه وهي صور النعمان الغاضبة التي استولت على كل مشاعره وأفكاره ، فالفرات هنا رمز للنعمان الغاضب وتصوير الفرات وسيلة للمديح .

إذ نجد النابغة يعتني عناية كبيرة بغرضي المديح والاعتذار ، ويعود هذا ؛ لأنه كان يتكسب بشعره ، ويلقيه على أسماع الملوك والأمراء بالنوال ، وهذا موجب للعناية كما ذكرنا .

الهجاء

قد يعبر الشاعر عن عاطفة السخط والغضب باتجاه شخص يبغضه أوجماعة ،وكان الهجاء سلاحاً من أسلحة القتال والتهديد والانتقاص من أقدار الخصوم ، والتشهير بهم وإظهار معايبهم (20) ، وهو غرض معروف عند الشعراء الجاهليين ، ولم تكن عناية النابغة به كعنايته بالمديح والاعتذار بل نجده أميل إلى المباشرة والخطابة منه إلى الفنية الشعرية ، وعند النظر في ديوان النابغة نجد هجائيتين اثنتين

فحسب قدم لهما فقط ، فلننظر في هذه المطالع لبعض قصائده الهجائية (ألا من مبلغ عني لبيدا) وقوله (فإن يك عامر) قوله من مبلغ عمر بن هند وقوله(أبلغ أبا حريث) [21] وهذه لأن النابغة كان يرد على الهجاء الذي يرمي به في قصائده ومقطوعاته ، هذه جاء بعضها على صورة نقائض منها قصيدته التي هجا بها الشاعر عامر بن الطفيل التي بدأها النابغة بهجائية مطلعها :

ألا من مبلغ عني زيادا غداة القاع إذ أزف الضراب ([22])

وقول النابغة في قصيدة مطلعها :

فإن يك عامر قد قال جهلا فإن مطية الجهل السبـــاب [23]

ويبدو أن هذا السجال الكلامي لم يسمح للنابغة بكد نفسه في إقامة قصائد على المستوى الفني الذي رأيناه في المدائح والاعتذاريات .

لم تكن هذه الميزة تتمثل في شعر النابغة فحسب ، بل هي عامة في الشعر الجاهلي إذ إنه يمتاز (بقصر قصائد الهجاء فأكثرها مقطوعات وأبيات ، ويرون أن قصر الهجاء وعفته هما أول أسباب رواجه انتشاراً) [24] ، ولقد عرف النابغة بهجائه العفيف التهكمي اللاذع ، إذ إنه يعتمد على ذوقه الحضري فيتهكم ويسخر من المهجو ، فيصفه بالحمق ويصغر له نفسه .

ومن هذا قوله في هجاء عامر بن الطفيل :

فإن يـك عامر قد قال جهلا فإن مطية الجهل السبـــابُ

فكـــن كأبيك وكأبي بـــــراء* توافقك الحكومة والصـــواب**

ولا تـــذهب بحلمك طاميات* من الخيلاء ليس لهن بـــابُ**

فإنك سوف تحلم أو تناهي** إذا ما شبت أو شاب الغراب***** [25]

فتجد النابغة بارعا في الهجاء ، ولكن ليست براعة فنية ؛ بل هي الحكمة إذ أنه يعمد إلى هذا الأسلوب في الهجاء تجنبا لإغضاب قبيلة المهجو ، على الرغم من هجائة لفارسها ، فهو يحط من قدر المهجو بمقارنته بأعيان قومه ، فيمدحهم ويؤخره عنهم ، فيكون هجاؤه إياهه أقسى من الليل منه صراحة .

أما الهجائيتان اللتان عنى بهما النابغة فكلتاهما في هجاء زرعة بن عمرو العامري بعد مساجلة فكرية بينهما في سوق عكاظ ، وكانت الغلبة فيهما للنابغة ، فهجاه زرعة بعد فراقهما ، فأجابه النابغة بهاتين القصيدتين ويبدو أنه نظمهما على روية ، كما أن الموقف وهو المنافسة الفكرية مع شاعر توجب العناية بالقصيدة لذا فقد قدم لهما ، وتنقل بين الطلل ، والغزل ، والوصف ، من دون إطالة ولا تدقيق في الوصف ، قال في مقدمتة الرائية :

طــال الثواء على رسوم ديار قفر أسائلها وما استخباري

دار تعفت لا أنيس بجوهـــا إلا بقـــايا دمنـــــــة و أواري

وقفت عليها فاضمحل طلولها هـــوج الرياح وديمة الأمطار

دار لمية إذ لهم لك جيـرة هيهات منك منازل الأخيـــــــار

فتحملوا زحلا كأن حمولهم دومّ ببيشة أو نخيـــل وبـــار (26)

لا نجد في هذه المقدمة الطللية تلك الصنعة الفنية التي يعرف بها النابغة إذ لم يرد إلا تشبيه واحد ، ولم نجد التدقيق في الوصف ، كالذي نجده في مقدمة داليته مثلا ، ولا الرحلة وما ينبع عنها من صور للثور الوحشي مثلا ، وهذا لأن الشاعر كان ساعيا نحو غرضه بسرعة ، فعلية يدور كل شيء ؛ لذا لم يطل مقامه في المقدمة.

الغزل

هو من أبرز الموضوعات و (أعلقها بالقلب وأقربها إلى طبيعة الإنسان ... وهو لغة العاطفة صوروا فيه أشواقهم وأحاسيسهم ، نحو المرأة وما يلقون منها من وصال ، أو هجر و من وعد وإخلاف ودل وغنج) (27) ، أما النابغة فقد (سنح لها بعض الوجد وتغنى بجمالها ، و جاء وصفه متباريا فيه مع سواه ، كأنه يعارضهم وينفس عليهم) (28) فقد كان ممن سار على نهج الشعراء الجاهليين من الوقوف على الأطلال والتغني بذكريات الصبا وأيام الهوى ، وذكر الحبيبة ومحاسنها ، والوداع والرحلة، وهذا هو الاتجاه الأول في الغزل عند الجاهليين وقد نال شاعرنا منه نصيبه ، إلا أنه لم يكن من المطيلين في ذكر الحبيبة ، بل يسعى مجدا نحو الغرض الرئيس هذا مثل قوله :

عهدت بها سعدى وفي العيش غرة فأصبح باقي حبلها يتقضب

فسل الهوى واستحمل الهم عرمسا* خروسا بحاجاتي تخب وتتعب*** [29]

فهذا ماورد في القصيدة من غزل، وهو الأسلوب الأكثر ورودا في شعره ، حتى وصف النابغة ببرود غزله وتكلفه [30] ، إلا أن شعره لا يخلو من مقدمات غزلية طويلة ومعبرة عن مشاعر الفراق والحنين وتشعر فيها بصدق العاطفة كمثل قوله :

عوجوا** فحيوا لنعم دمنة***** الدار ماذا تحيون من نؤي****** وأحجار**

أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بسافي التراب موار

وقفت فيها سراة *اليوم أسألها عن آلا نعم أمونا عبر أسفار

وقد أراني ونعم لاهيين بها والدهر والعيش لم يهمم بإمرار

أيام تخبرني نعم وأخبرها ما أكتم الناس من حاجي وأسراري([31])

ولقد كد النابغة نفسه في هذه القصيدة متفننا في وصف محبوبته إذ يقول:

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار**

تلوث* بعد افتضال البرد مئزرها لوثا على مثل دعص الرملة**** الهاري**

والطيب يزداد طيبا أن يكون بها في جيد وضاحة الحدين معاري

تسقي الضجيج إذا استسقى بذى أشر عذب المذاقة بعد النوم مخماري***

كأن مشمولة صرفا بريقتها من تعد رقدتها أو شهد مشتار

أقول والنجم قد مالت أوائله إلى المغيب نثبت مظرة حار

ألمحه أم سنا برق رأى بصري أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار

بل وجح نعم ندا والليل معتكر فلاح من بين أثواب وأستار [32]

ونلاحظ أن النابغة قد عمد إلى التصوير والتدقيق فيه ، مستعينا بأساليب البيان لإقامة صور حسية لحبيبته وهذا هو المعتاد لدى الشاعر الجاهلي ، الوصف الحسي الدقيق للمرأة ، إلا أن النابغة أحجم عن الفحش والتبذل ، وهذا ما لم يفعله في قصيدة أخرى سيرد خبرها .

أما الاتجاه الثاني من الغزل وهو الغزل الروحي العفيف وهو غزل لا أثر فيه لمطالب الجسد ، حيث تشيع حرارة العاطفة ... ويصور خلجات النفس ولقد وجدنا هذا الاتجاه من الغزل في قصيدة واحدة للنابغة ، وصف فيها المرأة مكسبا إياها الصفات الخلقية ، والمعاني الوجدانية من دون إسراف في الوصف الحسي ، حيث جاء في قوله :

ليست من السود أعقابا إذا انصرفت ولا تبيع بجنبي نخلـة البرما

غراء أكمل من يمشي على قـــدم أملـــــح من حاورته الكلمـــا (33)

يصور النابغة المرأة بأنها منعمة ، لديها من يكفيها العمل والكد ، ولا تشقى بعيشها بل لديها من يعولها من صاحبات الخدور منعمة ، طيبة الحديث لحسن خلقها وطيب معشرها ، فالنابغة لم يقف على حسن الشكل ، بل وصفها بكل معانيها فعندما قال غراء قال أكمل ولم يقل أجمل ؛ لأنه يسعى لجمال الروح والجسد معا من دون فحش ، وهذا نهج النابغة فهو لا (يصف من النساء إلا المرأة الناعمة المترفة الكاملة الخَلْق والخُلُق كأنها ترمز في ذهنه إلى سعادة الحياة بذاتها) .

أما الاتجاه الثالث في غزل النابغة فهو الغزل الحسي (الذي ينطق فيه الشاعر من نوازع شهوانية وعواطف لا تعرف التحرج والعفاف ... فيقوم على وصف الجوانب الحسية في المرأة) (34) ، وكان الاهتمام منصرفا (إلى المحاسن الجسمية وهو الطابع العام الشائع في الشعر العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة)(35) وإن للنابغة قصيدة غزل حسي أفحش فيها وعرفت في الأدب العربي والجاهلي خاصة لما حوته من وصف لجسد المرأة ومطلعها :

أمن آل مية رائح أو معتد عجلان ذا زاد أو غير مزود

أفـــد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قـــــد (36)

تختلف هذه القصيدة (عن سائر قصائد الغزل الجاهلي في أن الشاعر أوشك أن يخصص القصيدة للمتجردة كما أنها امتازت بما حوته من صور حضرية عرف بها النابغة منها قوله :

أو درة صدفية غواصهـا بهج متى يرها يهل ويسجد

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآخر تشاد وقرمـــــد (37)

نجد النابغة قد ورد على مختلف اتجاهات الغزل في الشعر الجاهلي وكانت له ميزته التي امتاز بها عن غيره ؛ ليترك طابعاً كما ترك في غرضي المديح والاعتذار والهجاء .

الوصف

يعد الوصف من الفنون البارزة التي برع فيها الشعراء الجاهليون فقد نظروا في الطبيعة الصحراوية ودققوا النظر ، كما وصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم ، (ولم يخل ديوان شاعر جاهلي من الوصف) [38]، والوصف من الموضوعات الأثيرة لدى النابغة إذ دخل الوصف في مختلف الأغراض فجاء به في الطلل والناقة والمطر والحرب والفرات ، والرحلة والنساء .

لقد حظيت مقدمات القصائد بالنصيب الأوفر من الوصف من الوقوف على الطلل وغيره تلك التجربة التي لازمت الشاعر الجاهلي في مختلف أغراضه الشعرية ، والنسيب وما تفرع منه من ذكر للشباب ورحيل الحبيبة ، والرحلة ابتداء بوصف الناقة وما يتفرع عنها من وصف الثور الوحشي والظليم وسواهما ، ومن الوصف الذي عرف عن النابغة وصف الثور في داليته إذ قال :

كـــأن رحلي وقد انهار بنـــــا يوم الجليل* على مستأنس وخـــــد**

من وحش وجرة* موشي أكارعه طاوي المصير كسيف الصقيل الفرد**

سرت إليه من الجوزاء ساريــة تزجي الشمال عليه جامد البـــــرد

فارتاع من صوت كلّاب فبات لـه طوع الشوامد من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر بـــــــه صمع الكعوب بريئات من الحـرد

وكان ضمران منه حيث يوزعـه طعن المعارك عند المحجر النجـد

شك الفريصة *بالمدري فأنفذهـا طعن المبيطر إذ يشفى من العصـد**

كأنه خارجا من الجنب صفحتـه سفود شرب نسوه عند مفـتـــأد

فظل يعجم أعلى الروق منقبضـا في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشق إقعاء صاحبـــه ولا سبيل إلى عقل ولا قـــــــود

قالت له النفس إني لا أرى طمعا وإن مولاك لم يسلم ولم يصـد [39]

إن النابغة أقام صورة سردية مكتملة الجوانب إذ حدد المكان والزمان والأبطال وخلق الصراع بمتنام مطرد وصولا إلى لحظة الدورة أو العقدة ومن ثم بدأ بفك الأحداث وصولا إلى النهاية ، هذا مع التعبير عن خلجات أنفس الأبطال فكأننا ليس أمام بهائم بل بشر يشعر ويفكر ويقرر وينفذ مع التدقيق في الوصف لإقامة أركان صورة متكاملة بكل أبعادها ، لم يكن هذا الوصف لمجرد فنية التعبير بل هو يحاول أن يعطي للثور صفات الشجاعة والقوة ، والثور هو سبية الناقة التي ستوصله الممدوح ؛ لأن الشاعر يقطع القفار وصولا إلى الممدوح كي يظهر ما يبذله من جهد وكي يستحق الجائزة على ما بذل ، لذا قال في نهاية هذا الوصف :

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا على الناس في أدنى وفي البعد(40)

أي تلك الناقة القوية الشجاعة كالثور الذي وصف فإن المقدمات تكون مطية للمدح يمهدها له كالطلل والمطية والقفار والثور الوحشي والصيد ، وقد يكون الوصف ليمثل فيه بعض معانيه بالكناية الحسية المطولة بالسرد والأحداث ، وهذا كوصف الفرات الذي جعله وسيلة لمدح النعمان بن المنذر وقد مر ذكره .

ونذكر هنا مثالا آخر على هذا الأسلوب وهو وصفــه للخيل في قصيدة مديح

إذ قال :

قاد الجياد من الجولان قائظــة من بين منعلة تزجي* ومجنـوب

حتى استغاث بأهل الملح ما طمعت في منزل طعم نوم غير تأويـبِ

ينضجن نضج المزاد الوفر أتاقهـا شد الرواة بماء غيـر مشـروب

قب الأياطل تردي في أعنتهــا كالخاضبات من الزعر الطنابيب

شعث عليها مساعير لحربهــم شم العرانين من مرد ومن شيبِ(41)

نرى في هذه اللوحة خيولا قوية تسير في القيظ الشديد ولا تهابه ، ولا تراوح ولا تنام ، بل إنها لتعرق حتى ينصب منها كما ينصب الماء من القرب ، وهي خيل ضامرة كالظليم في عدوها أي سريعة جدا .

لقد تخير لنا النابغة من الأحداث والأوصاف ما يوحي لنا بعظمة الممدوح وشدة احتماله من خلال خيله ، فإن أوصافها تدل على أنها خيل بطولة وقوة ومنعة أكثر من

دلالتها على الجمال ؛ وهذا لأن الهدف هو إضفاء هذه الصفات على الممدوح صاحب الخيل .

الرثاء

الرثاء من الفنون التي جود فيها الشعراء ؛ لأنه يعبر عن خلجات قلب حزين وفيه لوعة صادقة وحسرات حارة ؛ لذلك هو من الموضوعات القريبة من النفس ... فهو تعبير صادق مباشر قلما تشوبه الصنعة .

تفرع الرثاء في الشعر الجاهلي إلى ثلاثة فروع ، أما الأول فيكون رثاء ذاتيا ليعبر عن الأسى والحزن الذي يحسه الشاعر ، ولقد وجدنا هذا الرثاء عند النابغة في رثائه لأخيه إذ قال :

مـــــاذا رزئنـــا به من حية ذكـــر نضناضة بالرزايا * صلّ أصلال**

لا يهنئ الناس ما يرعون من كـلأ وما يسوقون من أهل ومن مال

بعد ابن عاتكة الثاوي على أبـوي أضحـــى ببلدة لا عمّ ولا خـــال

سهل الخليقة مشاء بأقدمـــــــــه إلى ذوات الذرى حمال أثقـــال

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالـــي (42)

ونلحظ أن رثاءه ذو روح صادقة تعبر عن لوعة الفراق وجميل الصبر .

أما النوع الثاني من الرثاء فهو الرثاء الحماسي الذي يمتزج بالحرب والشجاعة والتهديد والوعيد للأعداء وذكر خلة المرثي ، ونجد هذا في شعر النابغة في رثائه النعمان الغساني إذ قال :

فلا يهنئ الأعداء مصرع ملكهم وما عتقت* منه تميم ووائلٌ

وكانت لهم ربعية * يحذرونهـا إذا خضخضت ** ماء السماء القبائل

يسير بها النعمان تغلي قدورها تجيش بأسباب المنايا المراجـــــل***

يحـــث الحداة جالزا ** بردائـــــه يقي حاجبيه ما تثير القنابـــــل** (43)

إن رثاء النابغة للنعمان الغساني رثاء حماسي فيصور جيوش المرثي وعزيمته وكتائبه التي طالما خشيتها القبائل أن تطالها غزواته ، فهو رجل ذو بأس وقوة ، أما

النوع الثالث حيث يمتزج الرثاء الصادر عن وجدان قلبي مع الرثاء الصادر عن وجدان ذاتي حيث تلتحم الحماسة بالبكاء [44] ، ومنه رثاؤه لحصن بن حذيفة إذ يقول وهو يثور على ما حوله حتى الطبيعة :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جموح

ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيحٌ

فعما قليل ثم جـــــاش بنعيـــــه فبات نديّ القوم وهو ينوح [45]

ينكر النابغة بقاء الجبال راسخة ولو تجنح للوقوع ، كيف لم تنشر القبور الموتى ولو تسقط السماء على الأرض ، وكيف حصن قد مات ، وهذا أسلوب في استعظام المصيبة إلى المبالغة وإشراك الطبيعة في الحزن على المرثي .

بذا نجد النابغة قد تناول كل أنواع الرثاء ليعبر عن مشاعره الشخصية والقبلية بقي في شعر النابغة أغراض عدة منها الحكمة والفخر، إلا أنها قليلة ، ويكفينا ما تناولنا لمعرفة أغراضه وأساليب تناولها، ومقدرته الفنية ، وطرق صياغة صوره .

الخاتمة والنتائج :

و في ختام هذا البحث نخلص إلى أهم النتائج الآتية :

1- إن النابغة لم يكن يمدح متكسبا من أجل المادة بل سياسيا ينوب عن قبيلته مستثمرا مقدرته الشعرية للحصول على ود الملوك والأمراء ، ومن ثم الحصول على مبتغاه من مصالح قبلية .

2- حظي النابغة بمكانة شعرية سامية بين الشعراء الجاهليين حتى بلغ الأمر أن قيل أنه أشعر الجاهليين .

3- عني النابغة بغرضي المديح والاعتذاريات عناية فنية عالية ، وكان هذا للوصول إلى رضا الممدوح أو المعتذر له .

4- لم يعن النابغة بغرض الهجاء عنايته بالمديح من حيث الفنية لكنه كان يعرضه بأسلوب ساخر لاذع يحط من مقام المهجو من دون أن يقذع .

5- عرف النابغة بغزله التقليدي البارد الذي يطرقه لمجرد التقليد ومنافسة الشعراء في مقدرته الفنية ، وكان للنابغة غزل ماجن بلغ فيه من الفنية والجمال مبلغا حسنا ، وكذلك كان له غزل دل على العفة .

6- أما في غرض الوصف فقد نوع النابغة وأجاد فيه وكان من الشعراء البارعين في خلق الصور الفنية وجعلها سبيلا للمدح أو للغزل بأن يوسعها ويفرعها ليجعلها أكثر قدرة تعبيرية .

7- كان النابغة ثائراً مستدعيا للطبيعة في مشاركته أحزانه على المرثي ، وقد قدم - صوراً رثائية جميلة .

8- كل ذلك يشير إلى أن الاتجاه الوجداني لدى النابغة الذبياني كان دليلا على نضجه الفكري .

الهوامش :

1) ديوان النابغة الذبياني شرح وتحقيق حنا نصر الحتى ، الناشر دار الكتاب العربي ط1 ، سنة (1411 ه -1991) ، ص 205 .
2) نفســــــــــــــــــــه ، ص187 .
3) نفســــــــــــــــــــه ، ص 23 .
4) الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، (علي بن الحسين بن محمد القرشي) بأشراف وتحقيق إبراهيم الابياري ، المجلد العاشر عن طبعة دار الكتب بمصر الجزء 11 ، ص 6 .
5) ديوان النابغة تحقيق حنا نصر الحتي ، ص 22 .
6) الادب العربي بين الجاهلية والإسلام ، تأليف ، د . عبد الحميد محمود المسلوت ، منشورات الجامعة الليبية كلية الاداب ، ط1 ، 1983 .
7) الأغاني ألفه ، أبو الفرج الأصفهاني ، ج 11 ، ص 10.
8) تاريخ الادب العربي ، العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، الطبعة عشرون 1997 م ، طبع بمطابع دار المعارف (ج ، م ،ع) .
9) ديوان النابغة تحقيق حنا نصر الحتي ط1 ،ص 20 .
10) ديوان النابغة ، ط1 ، ص 30 .
11) نفســــــــــــــــــــه ، ص 301 .
12) نفســــــــــــــــــــه ، ص 63 .
13) تجريد الاغاني ، ابن واصل الحموي ، تحقيق طه حسين ، ابراهيم الابياري ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة (د.ت) ص 8.
14) التمثيل والمحاضر ، ابو منصور الثعالبي ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة الباني الحلبي ، القاهرة 1967 ، ص 4.
15) ديوان النابغة الذبياني ط1 ، ص 156 .
16) الاعتذاريات في الشعر العربي من عصر ماقبل الإسلام الى نهاية العصر الأموي ، محمود عبد الرزاق احمد العاني ، بإشراف الدكتور عناد غزوان اسماعيل ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1408 ه _ 1988 م ، ص44 .
17) الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، تأليف يحيى الجبوري ، منشورات قار يونس ، بنغازي ط 6 ، 1993 ، ص 6 .
18) ديوان النابغة ، ط1 ، ص 13 .
19) نفســــــــــــــــــــه ، ص 13.
20) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، ط2 ، دار المعارف القاهرة ، ص 7.
21) نفســــــــــــــــــــه ط 2 ، ص 7.
22) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق حنا نصر الحتا ، ص 19 .
23) الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة ، تحقيق ، محمد احمد شاكر ، ط 3 ، 1983 .
24) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق حنا نصر الحتي ، ص 22 .
25) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق حنا نصر الحتي ، ص 89 .
26) النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية ، محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان 1980 م ،ص 20 .
27) ديوان النابغة الذبياني تحقيق حنا نصر الحتي ، ص 42 .

28) نفســــــــــــــه ط 2 ، ص4.
29) ديوان النابغة الذبياني ، ت حنا نصر الحتي ، ص 89 _90 .
30) نفســــــــــــــه ، ص 91 .
31) نفســــــــــــــه ، ص 92 .
32) نفســــــــــــــه ، ص 158 .
33) الصور في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، علي البطل ، دار الاندلس للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1983، ص7 .
34) البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ت عبد السلام محمد هارون ، ط5 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1405ه _ 1985 م ، ص 12 .
35) ديوان النابغة الذبياني ، ت حنا نصر الحتي ، ص 67 .
36) النابغة سياسته وفنه ونفسيته ، ايليا سليم الحاوي ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة .
37) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق حنا نصر الحتي ، ص 68 .
38) نفســــــــــــــه ، ص 13.
39) ديوان النابغة الذبياني ، ت حنا نصر الحتي ، ص 36 _37 .
40) المرشد إلى فهم العرب اشعر العرب وصناعتها ، عبد الله الطيب ، دار الفكر بيروت ، ط 2 ، ص 1 .
41) النابغة سياسته وفنه ونفسيته ، ايليا سليم الحاوي ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة ، ص 6 .
42) ديوان النابغة الذبياني ، اعتنى به وشرحه حمدو طماس ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت ، ط2 ، سنة 1426 هـ _ 2005 م ، ص 8 .
43) ديوان النابغة الذبياني ، ت حنا نصر الحتي ، ص 149
44) نفســــــــــــــه ، ص 65 - 66 .
45) نفســــــــــــــه ، ص 46